

## صناعة النمذجة اللغوية عند العرب:

### دراسة فوتداولية لعنصري اللون والعرق

أ.د. فالح بن شبيب العجمي<sup>1</sup>

#### ملخص:

تقوم هذه الدراسة على تحليل الاتجاهات الثقافية لإبراز نماذج في اللغة على شكل صور نمطية، لتقوم بدورها في تمثيل التفريقات الاجتماعية التي يتبناها المجتمع في الواقع. وهي بطبيعة الحال - كما هو الوضع في كل الأنساق اللغوية - ليست صورة مطابقة للأوضاع الاجتماعية الواقعية، بقدر ما هي انعكاس لرؤية العالم في أذهان الفئات الاجتماعية التي تتبناها في اختياراتها اللغوية.

وقد تبنت الدراسة المنهج العلمي المتبع في اللسانيات الاجتماعية المتمثل في استقصاء الشفرة اللغوية، وعرضها في سياقات الاستخدام المختلفة للتوصل إلى دورها في تحديد منزلة الفرد الاجتماعية وأساليب التخاطب الواردة في تلك السياقات. كما حاولت الوصول إلى مدى قدرة المجتمع اللغوي على ضبط المعايير التداولية لاستخدام "عناصر النمذجة" أو "أساليب التخاطب" المختلفة في اللغة، ومدى بروز المستوى "فوق التداولي" (فوتداولي) الذي يخترق المعايير التداولية في استعمال اللغة.

كما تناولت كلاً من الأغراض التواصلية والأغراض التداولية في تلك الأساليب ضمن الخطاب العربي القديم ومدى تغلغله في الخطاب العربي المعاصر، من خلال بعض الاستخدامات الدارجة في شبه الجزيرة العربية، وربما تكون لها بعض الامتدادات في مناطق مختلفة من الثقافة العربية الحديثة. واستعرضت العلاقة بين الثقافة والتخاطب، مع التمثيل ببعض النمذجات في الاستخدام العربي الحديث.

**الكلمات المفتاحية:** النمذجة - أساليب التخاطب - منزلة الفرد - الشفرة اللغوية - السياق - التواصل - فوتداولي - المفهومة - التأدب - اللغات التطبيقية - الخصائص الإثنية.

#### Abstract:

Adopting a sociolinguistic approach, the present paper is an attempt to analyze cultural tendencies that highlight certain linguistic stereotypes which reflect social differences in real life. Such forms are, like all linguistic systems, not copies of realistic situations, but reflections of the users' view of the world.

<sup>1</sup> أستاذ اللسانيات بقسم اللغة العربية/جامعة الملك سعود

For this purpose, codes of linguistic address are analyzed in various contexts in order to show their role in identifying a person's social status in relation to the norms of address. An attempt has also been to identify the ability of each society to control pragmatic norms of stereotypes and forms of address in a given language, in addition to the supra-pragmatic level that doesn't match such norms in language use.

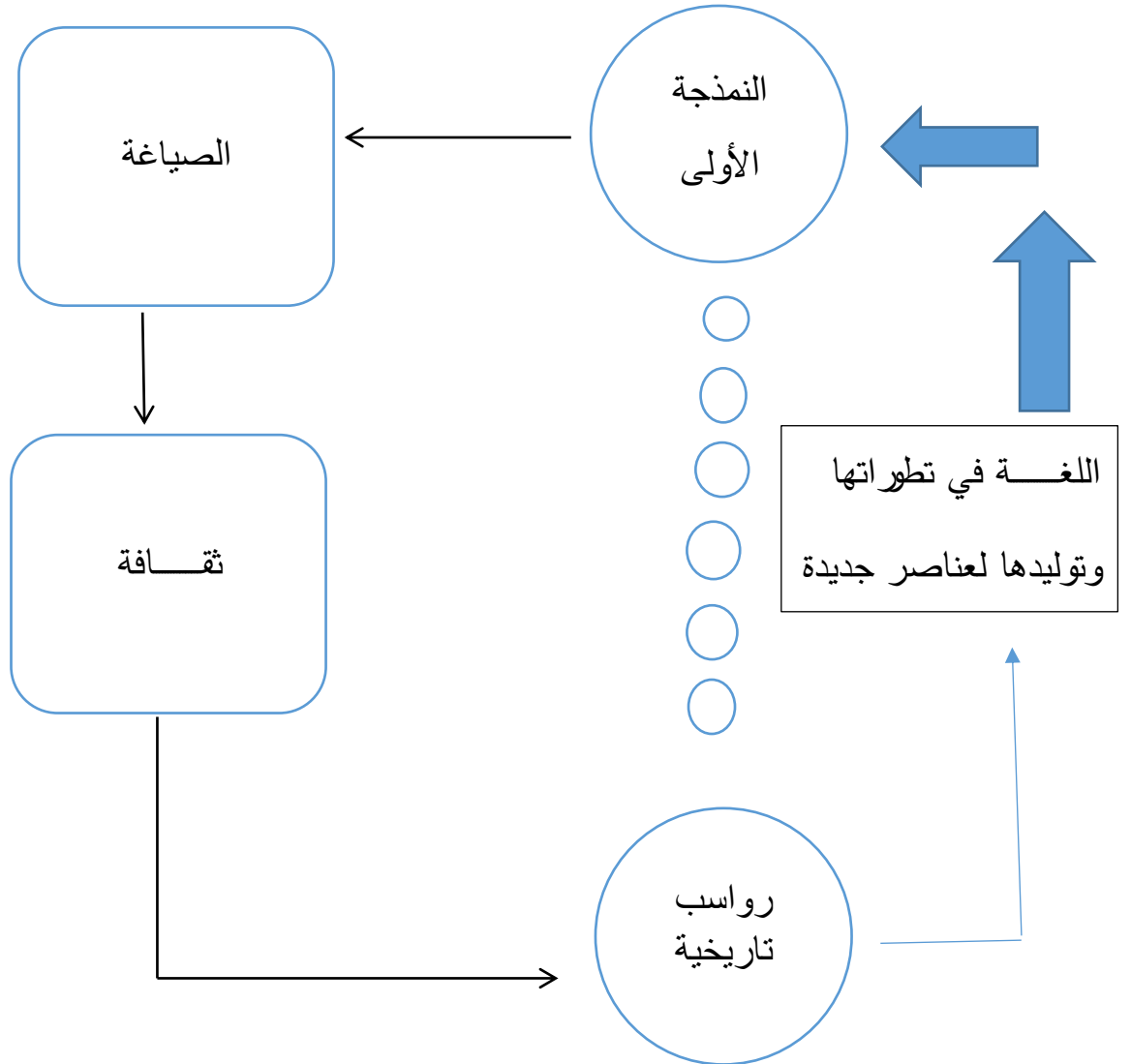
The communicative and pragmatic goals of such stereotypes are finally analyzed in Classical Arabic discourse and how they are enacted in Modern Arabic discourse, as illustrated by certain uses in the Arabian Peninsula and possibly similar uses in other areas in the modern Arab world. The study also examines the relationship between culture and forms of address, with examples of some modern Arabic stereotypes.

**Keywords:** *Stereotyping – address norms – person's status – linguistic code – context – communication – suprapragmatic – conceptualization – politeness – sociolects – ethnolects.*

## 1 - تموجات المفاهيم واضطراب المصطلحات

بدءاً نذكّر بأن الجزء الأول من هذه العبارة (تموجات المفاهيم) يخص الخطاب؛ في حين يتعلق الجزء الثاني منها (اضطراب المصطلحات) بالعلم. وتحدث تلك التموجات أصلاً نتيجة أعمال الشحنات الوجدانية المتأتية من عوامل الخطاب المحلي، بصورة ذاتية أو اجتماعية أو تاريخية أو معرفية أو عُرفية. وهذا ما يجعلها تستبدّ بالمؤثرات في الفكر، إضافة إلى ترسيخها المضامين الأيديولوجية. لكنها أيضاً – للمفارقة – تصنع آلية مستمرة لإنتاج خطاب متجدد يحمل السمات نفسها، لتصبح النتيجة مولدة للأثر مرة أخرى، وهو ما يطلق عليه في المنطق الصوري "العلاقة التبادلية" (reciprocal relation).

خطاطة العلاقة التبادلية:



وهذا الخلل في كل من الخطاب والعلم هو ما يجعل التمييز بين وجود أنساق اللغة وثباتها أمراً صعباً للغاية. ويمكننا أن نقدم للتمييز بينهما مقولة ميشال فوكو: "إن الطريقة التي يفكر بها الناس ويكتبون ويحكمون ويتكلمون (حتى النقاشات في الشارع والكتابات اليومية)، بل حتى الطريقة التي يستشعر بها الناس الأشياء، والكيفية التي تثار بها حساسيتهم، وسائر سلوكهم، تحكمها - في جميع الصور - بنية نظرية، نسق، يتغير مع العصور والمجتمعات، غير أنه يظل حاضراً في كل العصور، وكل المجتمعات".<sup>1</sup>

وتلك الجدلية تنطلق بالطبع من النظر في كيفية انتقال البحث في الأشياء، وتفسيرها بطريقة موضوعية بناء على معاني الرموز المفترض اشتراك المتواصلين فيها ضمناً، إلى تأويلها بطريقة ذاتية بناء على إحياءات الرموز نفسها؛ وهي أصلاً تمثل شبكة تتصافر وحداتها من أجل بناء مكونات مفاهيمية موازية ضمن زُمر العلاقات بين تلك الوحدات، وما تثيره في **الذهن الجمعي** أو **الغريزة الفنية**،<sup>2</sup> أو حتى **الأمراض الذاتية**<sup>3</sup> بمختلف درجاتها.

## 2 - العلاقة بين اللغة والإدراك

يتحدث علماء الاتصال عن البيئة الإدراكية للفرد، ويعنون بها مجموعة الافتراضات التي يكون بمقدور الشخص أن يتصورها أو يتمثلها عقلياً، ويقبلها بوصفها صادقة أو منطقية. وهذا المسعى لفهم البيئة الإدراكية أو الافتراضات المرتبطة بها في كل منشط تواصلي، لا يهتم بها الدارسون والعلماء فحسب؛ بل إنها مطلب كل من يقوم بتواصل اعتيادي. فالمرء حين يتواصل، فإنه يقصد أن يغير البيئة الإدراكية لمستمعيه، وهو بالطبع يتوقع من عملياتهم الفكرية أن تتأثر نتيجة لذلك التواصل.<sup>4</sup> كما يتطلب التواصل درجة معينة من التنسيق coordination بين المتواصلين بخصوص اختيار الشفرة والسياق؛ وجدير بالذكر أن قضية المعرفة المتبادلة لها دور في تحقيق هذا التنسيق بدرجة مقبولة يتحقق معها تواصل ناجح. وهنا تلعب كل من **القدرات الإدراكية الحسية** من جهة، و**القدرات الاستدلالية** من جهة أخرى، الدور الأهم في الوصول إلى تلك المعادلة، لأنه دون التوازن في تقدير كل من هذين النوعين من القدرات وتوظيفهما بالطريقة المناسبة، لن يصل المشتركون في العملية التواصلية إلى صناعة حد أدنى من البيئة الإدراكية المعرفية المشتركة؛ فتخفق بالتالي العملية برمتها.

وإذا أردنا تحديد مفهوم البيئة الإدراكية المعرفية لشخص ما (سواء كان منتجاً أو مؤولاً)، فإنه يمكننا حصرها في مجموع الحقائق التي يتمثلها ذلك الشخص ذهنياً؛ بمعنى أن تكون معطياتها بالنسبة إليه قابلة للإدراك الحسي أو قابلة للاستدلال، كما أن مجمل بيئة الشخص الإدراكية يساوي المجموعة الشاملة

لكل الحقائق التي يستطيع أن يدركها حسيّاً أو ذهنيّاً أو أن يستدل عليها.<sup>5</sup> لكن تقدير عملية الإدراك عند البشر ليست دائماً دقيقة في العصور المختلفة، والبيئات الاجتماعية والثقافية المتعددة؛ وهذا ما ينعكس بطبيعة الحال على اللغة التي تستخدمها تلك البيئات أو الأزمنة المختلفة في النظرة إلى ظاهرة معينة. فاللغة تشكل درجات الإدراك عند الإنسان، لذلك يكون من غير الممكن أن تكون الحدود واضحة بين المدركات دون أن تكون اللغة دقيقة ووافية في حصر كل مدرك حسي أو مجرد ضمن حدوده الوجودية أو المتصورة.

وكلما كانت الحدود واضحة بين المدركات الحسية الرئيسة في حياة المجتمع، وكان هناك اتساق في تحديد تلك المدركات في بيئة لغوية معينة؛ أصبحت العمليات الإدراكية أكثر دقة، واللغة أكثر مرونة وسعة في التعبير المناسب عن كل المدركات الحسية منها والمجردة. وربما نكون بحاجة في وقتنا الحاضر أكثر من الأزمنة الماضية بصورة متزايدة إلى الاهتمام بتلك المعادلة نظراً إلى سيطرة العولمة والرقمنة، وما تبعهما من تشتت فكري، وغربة في الحضور.

### 3 - متطلبات تحقيق النمذجات

#### 3 - 1 العوامل المؤثرة في تصور النموذج

تتمثل المجتمعات اللغوية بعدة عوامل تسهم في صناعة التصورات الخاصة بنماذج مؤطرة لغوياً (دالياً وتداولياً)، لتشير إلى الظواهر الاجتماعية المؤدية إلى خلق النمذج في سماته الفيزيائية - الوجودية؛ وتبعاً لذلك التصور الموازي في أبعاده الثقافية - الاجتماعية. وأبرز تلك المؤثرات هي العوامل البيئية؛ سواء ما يتعلق منها بالعوامل الجغرافية والتاريخية - الثقافية، أو ما يرتبط بأحداث ذات شأن في حياة المجتمع، مما يرسخ صوراً قارة في الذاكرة الجمعية، تنتج مثل تلك النمذجات غير المستندة إلى واقع ملموس، أو يمكن تبريره منطقياً.

وتليها في التأثير العوامل العمرية، التي يكون لها دور في ترسيخ مفاهيم محددة لدى كل جيل من أجيال المجتمع المتعاقبة، لما مرت به من تجارب ثقافية تختلف عن الأجيال السابقة واللاحقة له. كما أن سرعة إيقاع الحياة جعلت هذه العوامل تصبح أكثر فاعلية منها في عصور لم تكن الفجوات بين الأجيال المتتابعة كبيرة، ولم تكن التطورات التقنية تشي بفهم مختلف في كل جيل، وبقصر عمر الجيل الذي يستقل بمفاهيمه الجديدة.

ولا تقل قيمة العوامل الطبقيّة عن سابقاتها كثيراً، لما لكل طبقة من طبقات المجتمع من مصالح فتوية تجعل اهتمامها منصباً على تكريس السمات المؤدية إلى سيادة طبقها الذاتية. من أجل ذلك تنشأ

الصراعات بين طبقات المجتمع المختلفة بصور واضحة في بعض الأحيان، وخفية في أحيان أخرى؛ كما أنها تكون بطريقة غير مباشرة أو لاواعية في بعض مناطق فرض تلك الصراعات. وتظهر كل بوادر ذلك الواقع المعقد في الاستخدامات اللغوية، التي يميز فيها أصحاب كل طبقة، ما يخدم مصالحهم في الواقع بالدرجة الأولى.

وللتعليم (أو الوعي بالمتغيرات وموازن القوى في العصور القديمة) دور مهم أيضاً في خلق بعض النمذجات، التي يراد أن يكون لها أثر في التنافس الفئوي أو الفردي في مجالات الحياة المختلفة. وبالطبع يكون للأفراد المكتسبين تحصيلاً علمياً (أو ذوي الوعي المتقدم في معارف العصور القديمة) ميزة كبيرة في فرض نماذجهم المختارة واقعياً، ولغوياً تبعاً لذلك الواقع المتصور، دون النماذج الأخرى التي لا تجد من يسوّق لها من ذوي الدراية بالأمر، والمعرفة بمفاتيح المجتمع.

### 3 - 2 الشروط التواصلية للنمذجة

توجد شروط تواصلية تندرج بداياتها المسبقة تحت ما يعرف ضمن "التصور التعاقدي"؛ حيث يكون عنوان المنشط التواصلية من جهة، والعلاقات المهنية أو الشخصية أو الحميمة بين المتواصلين في إرساء تصورات تعاقدية يتسلح بها المتلقي في مراحل مبكرة قبل بدء التواصل من جهة أخرى، مؤشرات على الشروط المفترضة - من وجهة نظر المتلقي، أو فهمه للمواضعات الاجتماعية في الحالات التواصلية المعتادة على أقل تقدير - للعملية التواصلية محل النظر.

فالتفسير والفهم نشاطان بنائيان مركبان، يتجاوز المتلقي عند مزاولتهما عمليات معالجة المعلومات التي يستقيها من الرموز اللغوية وطريقة تركيبها وتواشجها، ليقوم المتلقي بملء معلومات النص الغامضة أو الغائبة بعلم مسبق أو معارف، مما يكون مخزناً في ذاكرته، أو يكون قد اكتسبه بواسطة "التقويم الإدراكي" الذي يسبق فهم النص. وفي مرحلة التلقي يبدأ المتلقي بتوحيد المعلومات المنقولة في النص مع المعارف التي يشملها العلم المسبق لديه؛ ويتم ذلك وفق استراتيجيتين مختلفتين، هما: استراتيجية النزول (top-down)، واستراتيجية الصعود (bottom-up) في فهم النص. وفي كل الدراسات التي طبقتها لا تظهر استراتيجيتنا المعالجة هاتان بصورة تعاقدية، بل تتداخلان وتتكاملان بطريقة متبادلة.

ولبناء إدراك المشتركين في عملية التواصل يقوم مفسر النص أولاً بفحص ماهية العلاقات الاجتماعية والعاطفية التي تربطه مع منتج النص، وما إذا كان النص الذي يقوم بتفسيره ينتظم في واقعة تواصلية، مما ينتج عنه أن المفسر يكون قد شارك المنتج من قبل في حل مهمات اتصال مشتركة. كما

يفحص في أي المكونات السياقية ينتظم النص، مما يعني أن المقاييس التواصلية والإدراكية، وكذلك الاجتماعية، هي التي تحدد فهم النص، وتقلص إمكانات تفسير النص. وقد جرى في علم النفس الإدراكي وفي علم نفس معالجة النص تطوير كثير من النماذج المعنية بنمذجة عمليات فهم النص وتفصيل مراحلها.<sup>6</sup>

فالتعاقد إذن على رأي باتريك شارودو: "هو ما يتكلم قبل أن يكون أحدٌ قد تكلم، هو ما يُفهم قبل أن يسبق أحدٌ إلى قراءة شيء. وبتعبير آخر، فإن منظومة التعارف المتبادل بين منتج أفعال الكلام ومتلقيها، تلك التي تنبثق عن التعاقد تجعل النص المنتج يدل أولاً بواسطة شروطه التواصلية: فحينما نلمح لوحة إشهارية في الشارع، نكون قد أبصرنا معنى كل ما يتعلق بالخطاب الإشهاري، قبل أن نشعر في قراءة خصوصيات اللوحة المعنية؛ وعندما نسمع بيان رجل سياسة في شاشة التلفاز، نكون قد استشرطنا فهم ما يحيل على الخطاب السياسي الخاص بمرشح للانتخابات، قبل الإمعان في تلقي ما يكون هذا المرشح في صدد التصريح به على وجه الخصوص. وكذلك حال الأستاذ الذي يشرع في إلقاء درسه في المدرج، ويكون الطلبة قد استبقوا إلى ترسيخ المعطيات في أذهانهم، التي يرتبط بها مثل هذا التعاقد التعليمي؛ وفي سياق تسلم رسالة ما، فبموجب المؤشرات التابعة لهذه الأخيرة، والتي ترسم على صفحات الظرف (أو أعلى الصفحة) يُستحضر التعاقد الخاص بالرسالة الإدارية، والضريبية والمهنية، أو الحميمية. فقسّم من المعنى يكون قد بُني قبل الولوج في خصوصيات النص، وهو ما ينجزه التعاقد التواصلية، بحيث يتم من خلاله تحديد فاعلي التبادل تحديداً مبالغاً فيه نوعاً ما".<sup>7</sup>

#### 4 - تاريخية النمذجة لدى العرب

توجد رموز النمذجة (أو الممذجات) في أي لغة أو لهجة أو مستوى لغوي سائد (المشتملة على شيء من العناصر الواقعية المتوجهة إليها اللغة بالوصف والتصنيف: لون البشرة أو العرق الموسوم بصفات محددة أو المهن ذات التداعي السلبي)، حيث توجد عوامل التمييز في تلك البيئة المستخدمة لهذه اللغة أو اللهجة.

وقد وجدت في الأقاليم التي كانت تخضع للحكم العربي في القرون الهجرية الأولى ظاهرة انتشار العبيد والجواري، واستخدام النوع الأول في الزراعة والرعي والأعمال الشاقة، وربما الخدمة في بعض أعمال المنزل؛ في حين يستخدم النوع الثاني في بعض الأعمال المنزلية الأخرى، وفي الغناء لمن كانت لديهم موهبة منهن وخبرة سابقة ومعرفة بالشعر والألحان (من يسمّين القيان)، وأيضاً في التسري للجميلات وصغيرات السن منهن. كما أن هناك تفاوت في نظرة العرب إلى عبيدهم، ومعاملة أصنافهم المختلفة وفقاً للنظرة إلى

كل صنف. فالعبيد الذين وجدوا في قصور الخلفاء والأمراء والقادة العسكريين وغيرهم من رجال الدولة والأثرياء، كانوا في وضعهم الاجتماعي أحسن حالاً من وضع العبيد الزوج الذين سُخِّروا للزراعة أو الأشغال الشاقة، إذ تشير المصادر إلى أن أعداداً كبيرة من العبيد الزوج كانوا يُسَخَّرُونَ للعمل في الإقطاعيات الزراعية في العراق الأدنى، وكانوا يعانون من أوضاع اجتماعية متردية.

وقد انعكس هذا الواقع في اللغة العربية، ليميز المعجم العربي بألفاظ خاصة بألوان البشرة وتطور استعمالها؛ حيث تمدنا كتب الأدب العربي بقائمة من الألفاظ المستخدمة في وصف ألوان البشر المختلفة، ومنها: الأبيض والأحمر والأصفر والأخضر والأسود والأدم والأرمك والأدلم والأدغم والمغرب، وغيرها.<sup>8</sup> وقد ذكر الجاحظ "أن السود عند العرب الخضر"، وقال أيضاً: "إذا قالوا فلان أخضر القفا، فإنما يعنون به أنه قد ولدته سوداء".<sup>9</sup> ويحدد ابن بطالان دلائل اللون في طبيعة أخلاق الأعراق المختلفة على مذهب الفلاسفة وأصحاب الفراسة كالتالي: "الأشقر والأحمر يدلان على كثرة الدم والحرارة، اللون الناري دليل تأنّ، والأحمر دليل حياء، واللون الذي بين البياض والحمرة يدلان على الاعتدال، والأخضر اللون دليل على سوء الخلق".<sup>10</sup>

وقد ركّزت بعض المصادر العربية على إيراد بعض الأحكام والآراء المسبقة السلبية عن السود من البشر؛ ففيما أورده المسعودي: "وقد ذكر جالينوس في الأسود عشر خصال اجتمعت فيه، ولم توجد في غيره: تقلفل الشعر، وخفة الحاجبين، وانتشار المنخرين، وغلظ الشفتين، وتحدّد الأسنان، وثنّ الجلد، وسواد الحدق، وتشقيق اليدين والرجلين، وطول الذكر، وكثرة الطرب (...) وإنما غلب على الأسود الطرب لفساد دماغه فضعف لذلك عقله".<sup>11</sup> وقد انتقد ابن خلدون تعليل المسعودي ونقله أسباب ميل السود إلى الطرب عن جالينوس ويعقوب ابن إسحاق الكندي؛ ومبيناً رأيه بأن "السبب الصحيح في ذلك أنه تقرّر في موضعه من الحكمة أن طبيعة الفرح والسرور هي انتشار الروح الحيواني وتفشييه وطبيعة الحزن بالعكس وهو انقباضه وتكاثفه، وتقرر أن الحرارة مفشية للهواء والبخار مخلخلة له زائدة في كميته. ولهذا يجد المنتشي من الفرح والسرور ما لا يعبر عنه، وذلك بما يداخل بخار الروح في القلب من الحرارة الغريزية التي تبعثها سورة الخمر في الروح من مزاجه، فيتفشى الروح وتحيى طبيعة الفرح (...) ولما كان السودان ساكنين في الإقليم الحار، واستولى الحر على أمزجتهم، وفي أصل تكوينهم كان في أرواحهم من الحرارة على نسبة أبدانهم وإقليمهم".<sup>12</sup>

وبالنسبة إلى الأعراق المختلفة، نجد التراث العربي يصف بإجمال ما يتعلق بجهات الأرض المختلفة وطباع أهل أقاليمها؛ ففي سكان أقاليم الشمال يقول صاعد الأندلسي: "إن إفراط بعد الشمس عن



مسامحة رؤوسهم يرد هواءهم، وكثف جوهم، فصارت لذلك أمزجتهم باردة، وأخلاقهم فجّة. فعظمت أبدانهم وغلب عليهم الجهل والبلادة، وفشا فيهم العي والغاوة، كالصقالبة والبلغر، ومن اتصل بهم ومن كان منهم ساكناً من خط معدّل النهار، وخلفه إلى نهاية المعمور من الجنوب".<sup>13</sup> كما أنه قد صنّف الأمم إلى طبقتين؛ طبقة "الأمم المتحضرة" وطبقة "الهمج"، وربما كان ذلك بأثر من الجاحظ، مثلما تأثر بهما ابن خلدون (كما تقدم رأيه أعلاه) في الفترة المتأخرة في النظرة إلى أعراقهم وإلى دونية حضارتهم. وربما يكون لعامل عدم الاحتكاك المباشر مع تلك الأعراق دور جوهري في النظرة إلى سماتهم العشوائية المتصورة؛ مثلما هي الحال في النمذجة المعاكسة لدى الغربيين في الزمن الحاضر إزاء المسلمين الشرق أوسطيين؛ بكونهم "إرهابيين مفترضين". إذ يقول أحد الأمريكيين الذي يسكن بجانب مركز ثقافي إسلامي، بأنه لم يكن يحتك بهم سوى بتحية عابرة؛ وبعد أن بدأ حوار بينه وبينهم انمحت تلك النمذجة من ذهنه، وأصبح يبحث عنهم في تفاعل اجتماعي يومي معهم.<sup>14</sup>

أما فيما يخص المهن، فقد كانت العرب تزدرى كل حرفة يدوية.. فمن كتاب الحيوان نجد الجاحظ ينقل الشعارات الخاصة بالنظرة إلى بعض أصحاب المهن: "وإذا قالوا: فلان أخضر البطن، فإنما يريدون أنه حائك، لأن الحائك لطول التزاقه بالخشب التي يطوي عليها الثوب يسود".<sup>15</sup>

#### 4 - 1 النمذجات الخلقية

ويعني بها النمذجة المتعلقة ببعض الخصائص الجسمانية، أو الشكل الخارجي للأشخاص أو النمط المتناول. ويعنينا في هذا المجال الصفات التي ترتبط بأي من العناصر المتناولة في البحث (اللون والعرق)؛ ومنها فيما يخص اللون الأسود - على سبيل المثال - ضخامة الجثة، وفضاعة المنظر، وكون الشكل مخيفاً لمن ينظر إليه. ففي الرواية الواردة في كتاب فتوح مصر عن عبادة بن الصامت عندما دخل على المقوقس للتفاوض نجد النص التالي: "قد سمعت مقالتك، وإن فيمن خلّفت من أصحابي ألف رجل أسود كلهم أشد سواداً مني، وأفطع منظرًا. ولو رأيتهم لكنت أهيب لهم منك لي، وأنا قد ولّيت، وأدبر شبابي؛ وإني مع ذلك بحمد الله ما أهاب مائة رجل من عدوّي لو استقبلوني جميعاً".<sup>16</sup> ومثل ذلك تجري نمذجة أجساد السود بأنها ذات روائح كريهة، ومن ذلك قول الجاحظ عندما شبههم بجلود التيوس: "وجلود التيوس وجلود آباط الزنج منتنة العرق؛ ومنتنة في الشتاء كنته في الصيف".<sup>17</sup>

وقد كان للون الأبيض بالطبع قيمة رمزية مهمة في الثقافة العربية؛ فهو لون الوضوح والشفافية والنزاهة والثقة والملوكية. وقد اتخذ الأمويون اللون الأبيض شعاراً لخلافتهم في القرن الأول الهجري.<sup>18</sup> كما

يرمز هذا اللون أصلاً في سيكولوجية الشعوب إلى الفرح والنقاوة والبركة والعفة ... واليد البيضاء ترمز للقوة والنفوذ واليد العليا، لكنه يعد دلالة نحس (يُكفّن فيه الميت).

#### 4 - 2 الممذجات الخلقية

يصف الجاحظ الخصائص الخلقية التي يتشابه فيها الزنج والصقالبة مع بعض أصناف الحيوانات، مثل شدة الاحتراق، أو البياض المغرب بالنسبة إلى الصقالبة، واللؤم وانعدام المعرفة والجمال والبلاهة. وقد رمى الزنج والصقالبة بضعف العقول وقصر الرويّة وجهلهم بالعواقب، إذ يقول: "وكما أن عقول سودان الناس وحمراهم دون عقول السمر كذلك بيض الحمام وسودها دون الخضر في المعرفة والنهاية".<sup>19</sup>

وقد تحدث ابن بطالان في الفصل الرابع من رسالته عن دور البلدان في اكتساب الأخلاق بقوله: "معرفة صور كل جنس وما يصلحون له من الأعمال بحسب خواصّ بلادهم والمنشأ"، ويقول في الزنجيات مثلاً: "مساوئهن كثيرة، وكلما زاد سوادهن قبحت صورهن وتحددت أسنانهن وقلّ الانتفاع بهن، وخيفت المضرة منهن. والغالب عليهن سوء الأخلاق وكثرة الهرب، وليس في خلقهن الغمّ، والرقص والإيقاع فطرة لهن وطبع فيهن ولعجومة ألفاظهن عدل بمن إلى الزمر والرقص".<sup>20</sup>

أما صاعد الأندلسي، فقد وصف لنا سكان أقاليم الجنوب بقوله: "أما سكان أقاليم الجنوب فلطول مقارنة الشمس، رؤوسهم أسخن هواءهم وسخن جوهم، فصارت لذلك أمزجتهم حارة وأخلاقهم محترقة، فاسودّت ألوانهم وتغلّغت شعورهم، فعدموا بهذا رجاحة الأحلام وثبوت البصائر، وغلب عليهم الطيش، وفشا فيهم النوك والجهل، مثل ما كان من السودان ساكناً بأقصى بلاد الحبشة والنوبة والزنج وغيرها".<sup>21</sup> ويضيف عند كلامه عن الهند قائلاً: "... وهم (يعني الهنود) وإن كانت ألوانهم في أول مراتب السواد، فصاروا بذلك من جملة السودان؛ فقد جنبهم الله تعالى سوء أخلاق السودان، ودناءة شيمهم وسفاهة أخلاقهم، وفضلهم على كثير من السمر والبيض ...".<sup>22</sup> ومما يؤكد تأصل هذه الثقافة لدى العرب أن نجد هذه المقولات تتكرر في عصور متأخرة، ولدى كتاب ليسوا أقل من ابن خلدون، في مثل قوله: "لقد رأينا من خلق السودان على العموم الخفة والطيش وكثرة الطرب؛ فتجدهم مولعين بالرقص على كل توقيع موصوفين بالحمق في كل قطر".<sup>23</sup> كما ينقل عن كتاب القرون الأولى وصفهم لسكان الأقاليم البعيدة عن الاعتدال: "ينقل عن الكثير من السودان أهل الإقليم الأول أنهم يسكنون الكهوف والغياض، يأكلون العشب، وأنهم متوحشون غير مستأنسين؛ يأكل بعضهم بعضاً. وكذا الصقالبة؛ والسبب في ذلك أنهم لبعدهم عن الاعتدال يقرب عرض أمزجتهم وأخلاقهم من عرض الحيوانات العجم، ويعدون عن الإنسانية

بمقدار ذلك (...) ومن سوى هؤلاء من أهل تلك الأقاليم المنحرفة جنوباً وشمالاً. فالدين مجهول عندهم، والعلم مفقود بينهم، وجميع أحوالهم بعيدة عن أحوال الأناسي، قريبة من أحوال البهائم".<sup>24</sup>

#### 4 - 3 النمذجات الجنسية

خلافًا للنمذجة الخُلُقِيَّة، فإن الصفات التي تسند إلى من يُتحيز ضدهم في النواحي الجنسية لا تكون دائماً سلبية؛ بل يشار إلى عوامل جاذبية جنسية في بعض تلك الفئات النمذجة. ففي حين يوصف الرجال ذوو البشرة السوداء بطول الذكر وقوة الغريزة أو المقدرة الجنسية؛ تتميز النساء - حسب وصفهم - بشدة الحرارة والاستجابة إلى المتعة الجنسية التي تجلب إليهن كل من كان شديد الشبق من الرجال على اختلاف أجناسهم.<sup>25</sup>

وفيما يخص التمييز العرقي، ينقل ابن بطلان ما يراه ميزة للنساء النوبيات والحبشيات في الجاذبية الجنسية، حيث يقول: "أما الزنجيات فليس فيهن متعة، لصنأهن وخشونة أجسامهن، وكذلك الزغاويات، فساؤهن لا يصلحن لمتعة".<sup>26</sup> وينقل لنا في رسالته تفضيل العرب للنوبيات بالإضافة إلى المتعة الجنسية أيضاً لتربية الأطفال: "لأنهن من جنس فيه رحمة وحنين على الولد، ويختار بعض الأطباء الزنج للرضاع، لأن حرارتهن البارزة نحو الأثداء منضجة للبن".<sup>27</sup>

ومن العبيد البيض يذكر ابن بطلان أن البجاويات والهنديات والبربريات واليமானيات والمدنيات والسنديات والمكيات والتركيات، يصلحن للتوليد واللذة، ويقول في تصنيفه لهذه الأنواع من الجواري: "من أراد الجارية للذة فليأخذها بربرية، ومن أرادها خازنة وحافظة فرومية، ومن أرادها للولد ففارسية، ومن أرادها للرضاع فزنجية، ومن أرادها للغناء فمكية".<sup>28</sup> أما البيض اللائي لا يصلحن لمتعة فيذكر ابن بطلان الديلميات والالانيات، فيقول: "وهن للخدمة أصلح منهن للمتعة، لأن فيهن خيرية طبع، وثقة واستقامة أخلاق، وحرصاً على المحافظة والموافقة، وهن بعيدات عن الشبق، وكذلك الأرمن، نساؤهم لا يصلحن لمتعة".<sup>29</sup>

ويرى بعض الكتاب العرب أن اللون أحد المحددات في معرفة قوة الشهوة الجنسية أو ضعفها؛ فتكون الشهوة ضعيفة لدى الشقر والبيض وسباط الشعور وزرق العيون، لأن أمزجتهم يغلب عليها البرد، وهم للخدمة أصلح، ويكون السمر والسود أكثر شهوة. فأدمة اللون هي من علامات قوة الشهوة، لأنها علامة حرارة وحيوية المزاج. أما اللون الأبيض الفاتح جداً (أي البياض المعُرب) فهو علامة البرودة الجنسية.<sup>30</sup> ويقرّ الجاحظ بأن الشهوة الجنسية تبقى نسبية، فيقول: "وإن نظر البيضان إلى نساء السودان

بغير عين الشهوة، فكذلك السودان في نساء البيضان. على أن الشهوات عادات وأكثرها تقليد؛ من ذلك أن أهل البصرة أشهى النساء عندهم الحبشيات وبنات الحبشيات، وأهل الشام أشهى النساء عندهم الروميات وبنات الروميات. وكل قوم فإنما يشتهون جلبهم وسبيهم، إلا الشاذ، وليس على الشاذ قياس".<sup>31</sup> وروى الأصفهاني أن الخليفة المتوكل سأل رجلاً: "لم ملت إلى السودان؟ فقال: لأنهن أسخن فقال عبادة وكان حاضراً: نعم للعين".<sup>32</sup> ويبدو أن انعكاس تلك النمذجة في الثقافة العربية خلال تلك الفترة قد أدى إلى وجود اتجاهات نحو تسميات الجواري، بما يتناسب مع الهدف من امتلاكهن أو التسري بهن؛ حيث وجدت الرغبة في تخبّر أسماء ذات إجماع جنسي للجواري المتخذات للمتعة واللهو (السريات) بصورة عامة من مثل أمهات الأولاد "كالخيزران"<sup>33</sup> أم موسى الهادي وهارون الرشيد، وهذا الاسم يعني الجارية الفرعاء الغيداء، التي تختال في مشيتها علاوة على جمالها ورقتها، فهي تشبه عود الخيزران في لينه وتثنيه. و"مراجل" أم المأمون، ويبدو أن هذه الجارية، فضلاً عن جمالها، كانت أنيقة جداً في لباسها؛ وكذلك أم هارون الواثق بن المعتصم، ويقال لها "قراطيس"، وهو أيضاً من الأسماء الدالة على الجمال والحسن وطول القامة.<sup>34</sup>

## 5 - تطبيقات النمذجة في العصر الحديث

تغيرت أوضاع النمذجة في وقتنا الحاضر عنها في العصور القديمة، وفقاً للتغير الكبير بين تصورات الأجيال المختلفة، أو ما يُطلق عليه "المفْهَمة" (conceptualization). ومما يجدر ذكره أن مفهومة العالم تعني إدخاله إلى عالم التعبير اللساني، وهذا بدوره يعني أن عملية المفْهَمة تسبق الاستعمال، وتلازمه أثناء تفعيل الخطاب. وبالطبع يوجد للمفهوم مضمون محدد في كل حقبة وثقافة، وفي المقابل تحكمه أيضاً العلاقة المؤطرة بين المتواصلين في أي تفاعل يكون ذلك المفهوم هو جوهر التواصل بينهم.

فلو نظرنا إلى خصائص التفاعل التواصلية - من وجهة نظر فاستلافيك - فيما يخص جوانب كل من المضمون والعلاقة اللذين يندمجان بطريقة غير قابلة للانفصال، مما يجعل الوضع ميتا-تواصلية؛ لوجدنا المفهوم يتشكل وفقاً لطبيعة العلاقة التي تصبغ العملية الاتصالية بطابعها. وبالرغم من أن جانب العلاقة ليس محددًا بصورة محسوسة في التواصل الحوارية، فإنه يبدو جانباً جوهرياً، لأنه يوقع الأشخاص في التفاعل، مما يجعل قنوات تشكيلها ذات طبيعة إبداعية منقطعة النظير؛<sup>35</sup> وهي في الوقت نفسه المعبر الواضح لفهم العلاقة بين المتواصلين في المقاربة التداولية. إذ إنها تمثل أصل الصراعات المتعددة بين الأشخاص، أو محاولات التقارب والإقناع بالوسائل غير اللسانية.

ولا يمكن أن تستنبط الأصناف المتعددة للمفاهيم من الواقع دون تطوير دراسات تتعلق بعلم تطور دلالات الألفاظ Semasiology (الذي ينطلق من إطار العلامات إلى حقل المفاهيم)، مما يؤطر بصورة رئيسة لميداني الفهم والتأويل الحواريين. على أن عوامل التشويش في "الدينامية الحوارية" التي تعترى أي تواصل تنشأ عن ظاهرة التضمينات، وتحتوي كلاً من 1- المعرفة اللسانية، 2- المعرفة عن العالم؛ وهي ما تقود إلى "الكفاية الموسوعية" (مجموع أنظمة التقويم والتأويل).<sup>36</sup>

## 5 - 1 نشأة النمذجة المعاصرة:

تنشأ النمذجة بالطبع من خلال تغيرات اجتماعية جوهرية تصحبها علاقات فئوية مختلفة عن الفترات السابقة لها، فينعكس ذلك في لغة المجتمع المحلي بأطر تحدد المستويات الطبقية وقيمة الأفراد ضمن التصنيف الجديد؛ وأكثر ما يمثله في الاستخدام اللغوي هي أساليب التخاطب (address norms). وقد حددت الدراسات الكلاسيكية في هذا الشأن مدى قيمة هذه الأساليب في معرفة مصادر اكتساب الأفراد قيمتهم الاجتماعية؛ كما أوضحت - في المقابل - أثر التقدم الحضاري أو عدمه في توحيد تلك الأساليب أو تعددها. ومن تلك الدراسات ما قام به روبنسون من فرضية لافتة للنظر،<sup>37</sup> بأنه في المجتمعات التي يستقي المرء فيها منزلته الاجتماعية من منجزاته، توجد في لغة ذلك المجتمع تفرقات قليلة في أساليب التخاطب. ففي مثل تلك المجتمعات يمكن أن توجد صيغة واحدة رئيسة للتخاطب؛ فهم يعتمدون على وسائل أخرى للإشارة إلى تنوع العلاقات بين أفراد المجتمع. أما في المجتمعات التي تكون المنزلة الاجتماعية محددة سلفاً؛ مثلاً منذ المولد نتيجة الانتماء إلى فئة اجتماعية معينة؛ فإننا نجد فيها قائمة متدرجة من أساليب التخاطب، وفيها تنعكس تلك الفروق في الأبنية الطبقية لشرائح المجتمع المختلفة.

## 5 - 2 أغراض النمذجة المعاصرة:

تستخدم الأساليب المختلفة المعبرة عن حالات النمذجة الاجتماعية في اللغات الحديثة، أو أساليب التخاطب المتباينة من أجل تحقيق مجموعتين من الأغراض؛ إحداها تواصلية موجهة إلى الجمهور المتلقي للرسالة، والأخرى تداولية تعبر عن ذات المنتج للرسالة.

### الأغراض التواصلية:

1 - **التضامن:** يتقدم هذا الغرض بقية أغراض التواصل، بوصفه يحتوي أحد أهم مكونات العملية التواصلية، ومقومات استمرارها. ومن خلال سيادة مفهوم التضامن بين أفراد المجموعة اللغوية يبقى تماسكها قوياً، ولُحمتها الاجتماعية ثابتة؛ ومن هنا تنشأ بعض الأفكار في فترات مختلفة من تاريخ المجتمعات (سواء

الكبيرة أو الفتوية الصغيرة) التي يسعى أصحابها إلى استغلال ترحيب أفراد المجتمع بما يحقق التضامن في البنية الاجتماعية،<sup>38</sup> والاتساق في الأهداف ورؤية العالم؛ ليخرجوا بشطحات شوفينية، أو تعصب فتوي غير قائم على مقومات منطقية في أرضية الواقع الفعلي.

2 - **إظهار القوة:** أوضحت الدراسات بشأن السياسات المؤسسية المتعلقة بهذا الموضوع، أن المعايير الثقافية، وصناعة النمذجة، والتحيز، والعنصرية، والاختلافات في أساليب التواصل؛ كلها تخدم إدراج مواقع المجموعات القوية، بوصفها منطلقات للأحكام. في حين تغض الطرف غالباً عن اهتمامات الأقليات العرقية والجنسية والقومية والدينية؛ وإن جرى إدخال وجهات نظر أي من هذه الأقليات، فإنه يكون لأغراض محددة تخدم رغبات الجماعات المسيطرة وأعضائها.<sup>39</sup>

3 - **وضع المسافة:** من العناصر الضرورية في عمليات التواصل تقدير كل من المتواصلين للمسافة المفترضة بينه وبين الطرف الآخر المشارك له في العملية التواصلية. وفي حالات كثيرة تختلف التقديرات لدى الطرفين بشأن العلاقة المفترضة بينهما، وبالتالي المسافة المتوقعة وضعها خلال التواصل (بالطبع يشمل ذلك المسافة الفيزيائية والمسافة المجردة).

4 - **التعبير عن الاحترام:** هذا الغرض يمثل في المقاربات التواصلية معياراً متدرجاً؛ تتفاوت درجاته وفق اقتراب وجهات نظر المتواصلين بعضها من بعض، أو اختلافها جزئياً أو كلياً. وما يهمنا في جانب التعبير الفتوي الاجتماعي ضمن تصورات "النمذجة" هو الاتفاق بين المتواصلين في السمات التي تنسب إلى أشياء محددة أو أشخاص محددين يجري الإعلاء من شأن تلك النمذجات، أو الخط من قدرها، من خلال نسبة تلك السمات إليها في التعبير الرمزي عنها في اللغة.

5 - **تضمين الحميمية:** يتحقق هذا الغرض من خلال إدراج بعض التنوعات اللغوية المميزة المختارة، والمعيرة عن وضع خاص بين أطراف التواصل، أو بين المنتج وموضوع الحديث في الرسالة اللغوية. وهذه السمة، وإن كانت أساساً درجة من درجات وضع المسافة؛ إلا أن لها من الخصوصية في التأثير الكبير عند اختيار الأساليب، ما يجعلها تستحق أن تُفرد بتوضيح مستقل يبين قيمتها في صياغة النمذجة اللغوية في المواقف التي يكون للأشخاص علاقات خاصة مع آخرين معنيين في العملية التواصلية، أو أشياء متضمنة في التواصل.

## الأغراض التداولية:

1 - **تحديد الهوية:** هناك من الدراسات المتعلقة بالهوية ما يربط بين المحددات الإثنية وخصائص الهوية الرئيسية، فيما يشكل الخصائص اللغوية للإثنيات المختلفة داخل المجموعة اللغوية، ويُطلق عليه "الخصائص الإثنية" (ethnolects)؛<sup>40</sup> وفي موضوع هذه الدراسة من الجلي، أنه سيكون لهذه الخصائص الإثنية في اللغة للأعراق المختلفة داخل المجتمع دور في صناعة نموذجة نابغة من تصورات كل مجموعة إثنية لنفسها وموقعها من المجموعات الأخرى، ولتصورات المجموعات الأخرى، ونظرة تلك المجموعات إليها. وهذه المميزات اللغوية لكل مجموعة عرقية هي ما يشير إليه هولمز، بأن الناس يحملون في فكرهم شفرتهم العرقية، التي تتضح من خلال اللغة التي يختارون أن يستخدموها.<sup>41</sup>

2 - **الوعي بالعوادات الاجتماعية:** لم تكن اللغة (منطوقة كانت أو مكتوبة) إلا نسقاً من الرموز أو العلامات التي تعد انعكاساً للعالم الذي نعيش فيه، وتنقل صورة مفاهيمية مجردة للعلاقات القائمة بيننا وبين الأشياء والحالات أو الأحداث من حولنا. وهذا يعني أن تلك الرموز تمثل العالم كما نفهمه، وهو ما يتضمن أن الواقع يُنقل دائماً بواسطة نسق من الرموز أو العلامات على هيئة محادثات ونصوص وصور. الأمر اللافت للنظر، أنه من أجل فهم ذلك العالم، فإنه يكون لازماً علينا أن نعلم بدراسة كبيرة على تلك الصيغ المتجذرة في عمق ثقافة الجماعة اللغوية، وهي الظاهرة التي يُطلق عليها في دراسات تحليل الخطاب social constructionism.<sup>42</sup> ومن هنا كان الالتفات إلى جانب العادات والتقاليد الاجتماعية المرتبطة بالحالة أو الحدث مناط البحث على درجة كبيرة من الأهمية لفهم خلفيات إنتاج النص، وبالدرجة نفسها من أجل الوصول إلى القدرة على تأويل الخطاب بأبعاده الثقافية والاجتماعية.

3 - **التأديب في اختيار الأساليب:** يتعلق مفهوم التأديب بجوانب تداولية ذات تأثير كبير في إنتاج الخطاب، وفي الوقت نفسه في تأويله. كما تختلف اللغات اختلافاً كبيراً في وجود أنساق هذا القاعدة (أو المبدأ)، وبدرجة أكبر في الاختيارات المختلفة داخل اللغة نفسها، وفقاً للأغراض التداولية المبتغاة. لذلك ينشأ العجز في قواعد التأديب عن نقص وجود النماذج والمعايير الخاصة بها في اللغة أو اللهجة أو المستوى اللغوي؛ فبعض اللغات توجد فيها أنساق تأديب معقدة، مثلما هي الحال في اللغة الجاوية ونموذجها المركب في الأساليب المختلفة، وفق المنزلة الاجتماعية من جهة، والعلاقة بين المتكلم والمخاطب من جهة أخرى؛ وهو ما يسميه جيرتز "أسلوبيم".<sup>43</sup> وفي المقابل توجد لغات ذات أنساق تحليلية وبسيطة جداً في التأديب، مثل: اللغة العربية في مستوياتها القديمة؛ قبل أن تستعير أساليب التخاطب المعقدة، وذات التدرج الهرمي من الأمم المجاورة للعرب بعد نشأة الدولة العربية (الأموية في الشام، والعباسية في العراق) والأقاليم المرتبطة

بما في الشرق والغرب. حيث لم يكن العرب يعرفون قبل الفتوحات تدرجاً في منزلة الفرد الاجتماعية، وبالتالي كانت أساليب التخاطب موحدة؛ تستخدم الاسم المجرد، أو ربما لقباً عاماً يسبق مخاطبة غير المعلومة أسماؤهم.

### 5 - 3 العلاقة بين الثقافة والتخاطب

من المسلم به أن طريقة استخدام اللغة هي التي تخلق الثقافة؛ فمثلاً كيفية مخاطبة المعلم في المدرسة والأساتذة في الجامعة، ومنها على سبيل المثال تحديد المصطلحات المستخدمة لوضع الفروق في المنزل بين المعلم والتلميذ في المرحلة الابتدائية. فأساليب المخاطبة يمكن أن تستخدم في تأسيس الهرمية أو خلق التضامن، ويمكنها أن تقحم أو تتحدى علاقات المنزل؛ فهذه العلاقات في المنزل ليست بالضرورة معطى مسبقاً، بل تتخلق من خلال طرق استخدام اللغة.<sup>44</sup>

وفي الغالب يكون الأشخاص المستخدمون لتلك النمذجة غير واعين لما يصنعونه من خلال اللغة؛ إذ إن النمذجة المعممة في مجتمع ما، تسود في لغة أغلب أفراده دون وعي منهم بأن أفكارهم تختلف عن أفكار مجتمعات أخرى إزاء الأشياء النمذجة أو الأشخاص النمذجين، وهو مسعى جمعي للسيطرة على الناس في ذلك المجتمع. وتخترق تلك النمذجة كلاً من مؤسسات التعليم، وآداب المجتمع، ووسائل الإعلام المختلفة، ليتعلمها التلاميذ في المدارس وأغلب البسطاء في الشارع بوصفها مسلّمات واقعية؛ فيتعاملوا مع العناصر المقصودة بالنمذجة وفقاً لتلك المفاهيم.<sup>45</sup>

### 5 - 4 النمذجات:

إذا نظرنا إلى أدوات النمذجة (أو النمذجات) في شبه الجزيرة العربية في العصر الحديث، سنجد أنها أصبحت المجتمعات الحديثة تعبر عنها من خلال القوالب اللغوية التالية:

1 - **الألقاب والأوصاف**؛ حيث توجد في الغالب ثنائيات من الأوصاف المتضادة ذات الحمولة القيمية، وبعضها تحولت إلى ألقاب أو معرّفات ترتبط بالصنف الاجتماعي الذي تحدده الفئة الاجتماعية النمذجة، ويشير إليه الرمز اللغوي؛

2 - **الأمثال**؛ توجد من الأمثال الموروثة ما تتناقل الجماعات المختلفة رمزيته إلى صفة ترتبط بعنصر النمذجة، وربما يجري تحويله ليحمل دلالة معدلة أو مغايرة لمضرب المثل القديم. وفي بعض الحالات تُبتكر أمثال معاصرة من الدارجة المحلية لإبراز تميز ذلك العنصر في الذائقة الاجتماعية؛



3 - الكليشات؛ وأغلبها مقولات شعبية حديثة تُسبَّك مع الحكايات التي يجري فيها تفضيل أحد عناصر النمذجة أو تحقيره. وربما تكون الكليشة خليطاً من قول مأثور وعبارة شعبية مضافة إليه؛

4 - النكت والسخرية؛ وفيها يُستنبط الموقف من العنصر المنمَّج من خلال المجاز المستخدم في الطرف أو الموقف الساخر المرتبط بماهية ذلك العنصر أو إحدى صفاته.

وسنقتصر فيما يأتي على إيراد بعض الأمثلة المتعلقة بالنمذجة الموروثة من العربية القديمة على صورة كليشات تستخدم في العربية الدارجة في شبه الجزيرة العربية في العصر الحاضر، منها على سبيل المثال:

"بيّض الله وجهك!"؛ "رايته بيضاء" في إشارة إلى الأفعال الطيبة للشخص المتحدث عنه؛ وفي المقابل:

"سود الله وجهك!"؛ "أفعاله سوداء" في إشارة إلى الأفعال السيئة للشخص المتحدث عنه.

كما نورد مثالين من المنمذجات في الألقاب الحديثة للتوضيح فقط:

أولهما: مفردة "شيخ"، ولها من المفاهيم المرتبطة بها كل من:

- لقب، ويتوزع إلى المجالات التالية: 1- رجل دين؛ 2- صاحب جاه؛ 3- رئيس مهنة (شيخ الدالين، شيخ المعارض... إلخ)
- وصف ثابت، ويتمثل في كل من: 1- طاعن في السن؛ 2- منتمٍ إلى أسرة حاكمة (في الخليج)؛ 3- رئيس كيان قبلي

- بغرض السخرية، وتمثله بعض استخدامات في سياقات مختلفة؛ يجمعها تنغيم المفردة مع حركات مصاحبة تفيد هذه الدلالة: يا شيبشيبشيب!

وفي حالة الخروج عن هذه المعايير العرفية، تكون الدلالة خاصة ومحددة بحالة معينة يحددها الظرف المصاحب، أو القرائن المساعدة على تحديدها. ولا يمثل نمذجة تخضع للعرف الاجتماعي، ولا تشخيص موقع الأفراد أو الهيئات المتناولة. وتمثلها حالات استخدام متعددة منها: 1- لعملاء البنوك، حيث تستخدم المفردة نتيجة النظر إلى رصيد العميل، أو هيئته من مركبة أو لباس واكسسوارات وغيرها، أو وجوده في القاعة الذهبية أو الماسية؛ 2- مع الأطفال للتدليع أو التلطف أو الأصدقاء والرفاق للمجاملة.

الثانية: مفردة "أستاذ"، ولها من المفاهيم المرتبطة بها كل من:

- لقب، ويندرج استخدامه أساساً في مجالين رئيسيين: 1- المعلم في مدارس التعليم العام أو المراكز والمعاهد المهنية؛ 2- عضو هيئة التدريس في الجامعات وما مثلها. ويتوزع في اللوائح الجامعية الرسمية السعودية - كما هو معروف - إلى ثلاث فئات: أستاذ مساعد، وأستاذ مشارك، وأستاذ.
- وصف ثابت، وتمثله النماذج التالية: 1- بارع في مهنته؛ 2- رئيس مجموعة البناء؛ 3- وصف وجاهة للتقدير يسبق اسم من ليس لديه لقب علمي أو اجتماعي
- أسلوب مخاطب، ويستخدم بطريقة فضفاضة؛ تخضع للتقدير الشخصي للمتلقي، وظرف التخاطب، وموقع المخاطب، وعلاقته بمستخدم الأسلوب.<sup>46</sup> وفي حالات ليست قليلة يبنى المستخدم علاقة مع المخاطب بإضافة المفردة إلى ضمير المتكلم (أستاذي أو أستاذتي)؛ لكن فارق العمر أو المكانة بينهما - إذا كان المستخدم أكبر عمراً أو مكانة من المخاطب - يجعله يلجأ إلى أساليب بديلة، مثل: "ولدي" أو "بنتي".<sup>47</sup>

## الخاتمة

من خلال استعراض وسائل النمذجة في عدد من اللغات البشرية وفقاً لأدبيات الموضوع تبين أنها ظاهرة عامة، وأن الاتجاهات الثقافية لدى المجموعات البشرية المتجانسة نحو وضع وسائل لغوية متعددة تعكس الفروق الاجتماعية التي تراها كل مجموعة ذات شأن في التفريق بينها وبين المجموعات الأخرى، وتوضح رؤيتها للعالم من ناحية أخرى. وكذلك تضع الحدود بين الفئات المختلفة أو الأفراد داخل المجموعة الواحدة؛ وجد الباحث أن هناك شفرات لغوية واضحة للتعبير عن كل تلك الفروق العرقية أو الاجتماعية أو الفردية، وأن اللغة عالم من العلاقات الشبكية التي لم يستطع الدارسون في أكثر حقول الدرس اللساني تبين بعض خفاياها.

وبواسطة الأغراض التواصلية والتداولية التي تدشنها تلك الأساليب يمكن اكتشاف كثير من مزايا الخطاب العربي القديم، أو ما تشكّل منه في خطابنا العربي المعاصر، إضافة إلى ما اكتسبته المجتمعات العربية حديثاً من الاندماج مع فكر الحضارة المعاصرة ومفاهيمها الثقافية والاجتماعية والعلمية. وفيما يخص تفكيك عناصر هذه الظاهرة على وجه الخصوص يمكن الانطلاق من النظر في كيفية انتقال البحث في الأشياء، وتفسيرها بطريقة موضوعية بناء على معاني الرموز المفترض اشتراك المتواصلين فيها ضمناً، إلى تأويلها بطريقة ذاتية بناء على إيجاءات الرموز نفسها؛ وهي أصلاً تمثل شبكة تتصافر وحداتها من أجل بناء مكونات مفاهيمية موازية ضمن زُمر العلاقات بين تلك الوحدات، وما تثيره في الذهن الجمعي أو الغريزة الفئوية.

وكان للشروط التواصلية المتوقع تطبيقها في كل موقف من حالات وأحداث الواقع دور كبير في صياغة تلك المفاهيم، وفي تهيئة الظروف المناسبة لبناء الشبكة التأويلية لدى أطراف التواصل الأخرى؛ وهي بالطبع معقدة، وتختلف في التواصل الظرفي عنها في التواصل العابر للتاريخ وثقافة الأزمنة المختلفة، ومن باب أولى أيضاً أنها مختلفة في المكتوب عنها في الشفاهي؛ وفي طرق التواصل المختلفة، وشخصيات المتواصلين، إلى غير ذلك من الشروط المتعددة. لكن الباحث قد توصل إلى أن درجة الارتباط بين وسائل النمذجة وأساليب التخاطب كبيرة جداً، إلى درجة عدم إمكان الفصل بينهما في النشأة، وتطور العناصر اللغوية المعبرة عن كل منهما؛ وربما يحتاج هذا الارتباط إلى مزيد من الدراسات المستقبلية في هذا الشأن.

### المراجع العربية:

- ابن حبيب، أبو جعفر محمد: المحرر. بيروت، د. ت.
- ابن خلدون، عبد الرحمن: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. بيروت: د. ت. ، المقدمة.
- ابن عبد الحكم، أبو القاسم: فتوح مصر وأخبارها. ليدن (هولندا): مطبعة بريل، 1920م.
- ابن منظور: لسان العرب. بيروت، د. ت.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: الرسائل، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون. بيروت: 1991م.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: كتاب الحيوان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون. القاهرة: 1914م.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: المحاسن والأصدا. مصر، 1913م.
- الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي: تاريخ بغداد منذ تأسيسها إلى عام 463 هـ. بيروت: د. ت.
- الراغب الأصفهاني، أبو القاسم حسن بن محمد: محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء. بيروت: 1961م.
- سبيري، دان & ولسون، ديدري: نظرية الصلة أو المناسبة في التواصل والإدراك، ترجمة: هشام إبراهيم عبد الله الخليفة. بنغازي (ليبيا): دار الكتاب الجديد المتحدة، 2016م.
- السلامي، شافية حداد: نظرة العرب إلى الشعوب المغلوبة من الفتح إلى القرن الثالث هـ/ التاسع م. بيروت: مؤسسة الانتشار العربي & صفاقس (تونس): دار محمد علي، 2009م.
- صاعد الأندلسي، أبو القاسم: طبقات الأمم، تحقيق: حياة بوعلوان. بيروت: 1958م.
- فوكو، ميشال: هم الحقيقة، ترجمة: محمد المسناوي وآخرين. الجزائر: منشورات الاختلاف، 2006م.

المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي: **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، تحقيق وتعليق الشيخ قاسم الشماخي. بيروت: 1989م.

مقران، يوسف: "من سمات الخطاب اللساني العربي الراهن – مقارنة إبستمولوجية سوسيوثقافية (في ضوء لسانيات المتون)"، **عالم الفكر** 179 (يوليو – سبتمبر 2019م)، ص ص 7 – 78.

نظيف، محمد: **الحوار وخصائص التفاعل التواصلية – دراسة تطبيقية في اللسانيات التداولية**. الدار البيضاء (المغرب): أفريقيا الشرق، 2010م.

نوار المخطوطات، تحقيق: عبد السلام هارون. بيروت: 1991م.

هاينه من، فولفجانج & فيهفجير، ديتير: **مدخل إلى علم اللغة النصي**، ترجمة: فالح بن شبيب العجمي. الرياض: دار جامعة الملك سعود للنشر، 1419هـ (1999م).

### المراجع الأجنبية:

DeTurk, Sara: "Quit Whining and Tell Me About Your Experiences!" (In)Tolerance, Pragmatism, and Muting in Intergroup Dialogue. In: **The Handbook of Critical Intercultural Communication**. Edited by: Thomas K. Nakayama & Rona Tamiko Halualani. Chichester (UK): Wiley-Blackwell, 2013, pp. 565- 584.

Goddard, Angela and Carey, Neil: **Discourse – the basics**. London & New York: Routledge, 2017.

Holmes, J.: **An Introduction to Sociolinguistics**, 3<sup>rd</sup> Edition. Harlow: Person, 2008.

Monaghan, Leila; Goodman, Jane E.; Robinson, Jennifer Meta (Editors): **A Cultural Approach to Interpersonal Communication- Essential Readings**. Second Edition. Chichester (UK): Wiley-Blackwell, 2012.

Moon, Drea G.: Critical Reflections on Culture and Critical Intercultural Communication. In: **The Handbook of Critical Intercultural Communication**. Edited by: Thomas K. Nakayama & Rona Tamiko Halualani. Chichester (UK): Wiley-Blackwell, 2013, pp. 34- 52.

Mooney, Annabelle and Evans, Betsy: **Language, Society & Power- An Introduction**, Fourth Edition. London & New York: Routledge, 2015.

Robinson, W. P.: **Language and Social Behaviour**. Harmondsworth (England): Penguin Books, 1972.

Schmitt, Norbert (Editor): **An Introduction to Applied Linguistics**. Second Edition. London & New York: Routledge, 2010.

Wardhaugh, Ronald: **An Introduction to Sociolinguistics**, Second Edition. Oxford UK & Cambridge USA: Blackwell, 1992.

1. ميشال فوكو: هم الحقيقة، ترجمة: محمد المسناوي وآخرين. الجزائر: منشورات الاختلاف، 2006م، ص 10.
2. من الغرائز الفتوية "الذكورية"؛ "النسوية"؛ "الشعور بالتفوق العرقي"، وكل ما يندرج ضمن إطار "الحقائق المطلقة".
3. منها على سبيل المثال: "الترجسية"؛ "السادية"؛ "المازوخية" ... إلخ.
4. ينظر: دان سبيرير & ديدري ولسون: نظرية الصلة أو المناسبة في التواصل والإدراك، ترجمة: هشام إبراهيم عبد الله الخليفة. بنغازي (ليبيا): دار الكتاب الجديد المتحدة، 2016م، ص 93.
5. ينظر: المرجع نفسه، ص ص 81 – 82.
6. ينظر: فولفجانج هاينه من & ديتير فيهفيجر: مدخل إلى علم اللغة النصي، ترجمة: فالح بن شبيب العجمي. الرياض: دار جامعة الملك سعود للنشر، 1419هـ (1999م)، ص ص 153 – 155.
7. يوسف مقران: "من سمات الخطاب اللساني العربي الراهن – مقارنة إبستمولوجية سوسيوثقافية (في ضوء لسانيات المتون)"، عالم الفكر 179 (يوليو – سبتمبر 2019م)، ص ص 66 – 67.
8. ينظر: شافية حداد السلامي: نظرة العرب إلى الشعوب المغلوبة من الفتح إلى القرن الثالث هـ/ التاسع م. بيروت: مؤسسة الانتشار العربي & صفاقس (تونس): دار محمد علي، 2009م، ص ص 440 – 441.
9. أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: الرسائل، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون. بيروت: 1991م، ج 1، ص ص 207 – 208؛ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: كتاب الحيوان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون. القاهرة: 1914م، ج 3، ص ص 247 – 248.
10. نواذر المخطوطات، تحقيق: عبد السلام هارون. بيروت: 1991م، ج 1، ص 398.
11. أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق وتعليق الشيخ قاسم الشماعي. بيروت: 1989م، ج 1، ص 91.
12. عبد الرحمن بن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. بيروت: د. ت. ، المقدمة، ص 87.
13. أبو القاسم صاعد الأندلسي: طبقات الأمم، تحقيق: حياة بوعلوان. بيروت: 1958م، ص ص 41 – 42.
14. ينظر: Sara DeTurk: "Quit Whining and Tell Me About Your Experiences!" (In)Tolerance, Pragmatism, and Muting in Intergroup Dialogue. In: The Handbook of Critical Intercultural Communication. Edited by: Thomas K. Nakayama & Rona Tamiko Halualani. Chichester (UK): Wiley-Blackwell, 2013, p. 576. [565- 584].
15. كتاب الحيوان، ج 3، ص 248.
16. أبو القاسم بن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها. لندن (هولندا): مطبعة بريل، 1920م، ص ص 65 – 66.
17. كتاب الحيوان، ج 5، ص 466.
18. ينظر: شافية السلامي: نظرة العرب، ص 496.
19. كتاب الحيوان، ج 3، ص ص 189 – 190؛ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: المحاسن والأضداد. مصر، 1913م، ص ص 229 – 230.
20. نواذر المخطوطات، ج 1، ص ص 383 – 384.

21. صاعد الأندلسي: طبقات الأمم، ص 42.
22. المرجع نفسه، ص 51.
23. المقدمة، ص 86.
24. المرجع نفسه، ص ص 82-83.
25. ينظر: شافية السلامي: نظرة العرب، ص 485.
26. نوادر المخطوطات، ج 1، ص 406.
27. المرجع نفسه، ص 418.
28. المرجع نفسه، ص 383.
29. المرجع نفسه، ص 408.
30. ينظر: شافية السلامي: نظرة العرب، ص 486.
31. رسائل الجاحظ، ج 1، ص 215.
32. أبو القاسم حسن بن محمد الراغب الأصفهاني: محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء. بيروت: 1961م، ج 3، ص 292.
33. ينظر: أبو جعفر محمد بن حبيب: المختار. بيروت، د. ت. ص ص 37-38؛ أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد منذ تأسيسها إلى عام 463 هـ. بيروت: د. ت. ج 14، ص 13؛ ابن منظور: لسان العرب. بيروت، د. ت. (خزر): الخيزري والخوزري والخيزلي والخوزلي: مشية فيها ظلع أو تفكك أو تبخر.
34. في لسان العرب: (مرجل): ضرب من برود اليمن وثوب ممرجل على صنعة المراحل من البرود؛ (قرطس): يقال للجارية البيضاء المديدة القامة قرطاس، والقرطاس الصحيفة، وتكون بيضاء.
35. ينظر: محمد نظيف: الحوار وخصائص التفاعل التواصلي - دراسة تطبيقية في اللسانيات التداولية. الدار البيضاء (المغرب): أفريقيا الشرق، 2010م، ص 20.
36. ينظر: المرجع نفسه، ص ص 54-55.
37. ينظر: W. P. Robinson: Language and Social Behaviour. Harmondsworth (England): Penguin Books, 1972, p. 129.
38. مما يقرب توحيد المصطلحات وفقاً لاتفاق المفاهيم النسبي، وينشأ معه ما يطلق عليه في اللسانيات الاجتماعية sociolct؛ وهي لغة الفئة الاجتماعية الصغيرة التي تتمثل فيها مصالحها، وتكون مفاهيمها مشتركة ومتقاربة لدى أفراد تلك الفئة. ينظر: An Introduction to Applied Linguistics. Edited by: Norbert Schmitt, second Edition. London & New York: Routledge, 2010, p. 144.
39. ينظر: Sara DeTurk: "Quit Whining and Tell Me About Your Experiences!" (In)Tolerance, Pragmatism, and Muting in Intergroup Dialogue. In: The Handbook of Critical Intercultural Communication. Edited by: Thomas K. Nakayama & Rona Tamiko Halualani. Chichester (UK): Wiley-Blackwell, 2013, p. 565.
40. ينظر: Annabelle Mooney and Betsy Evans: Language, Society & Power- An Introduction, Fourth Edition. London & New York: Routledge, 2015, p. 149.
41. ينظر: J. Holmes: An Introduction to Sociolinguistics, 3<sup>rd</sup> Edition. Harlow: Person: 2008, p. 183.
42. ينظر: Angela Goddard and Neil Carey: Discourse – the basics. London & New York: Routledge, 2017, p. 44.
43. ينظر: Ronald Wardhaugh: An Introduction to Sociolinguistics, Second Edition. Oxford UK & Cambridge USA: Blackwell, 1992, p. 275.

44. ينظر: A Cultural Approach to Interpersonal Communication- Essential Readings. Edited by: Leila Monaghan, Jane E. Goodman, Jennifer Meta Robinson; Second Edition. Chichester (UK): Wiley-Blackwell, 2012, p. 3.

45. ينظر: Dreama G. Moon: Critical Reflections on Culture and Critical Intercultural Communication. In: The Handbook of Critical Intercultural Communication. Edited by: Thomas K. Nakayama & Rona Tamiko Halualani. Chichester (UK): Wiley-Blackwell, 2013, p. 39.

46. ويعود ذلك - في ظني - إلى عدم وجود أساليب مخاطب مقننة في الأماكن العامة، أو في وسائل الإعلام، في العربية المعاصرة. وربما يسود بدلاً منها الكنية في حالة معرفة المستخدم لكنية المخاطب، أو اللقب المهني في حالة وجوده، مثل دكتور، أو الرتبة العسكرية التي تتضح من لباس من يخاطب بها.

47. وإذا لم يحدث ذلك، فإنه يحدث خرق للمعايير الاجتماعية الموضوعة لنمذجة التعاملات والعلاقات التي تنعكس على الأساليب اللغوية فهماً واستخداماً وتقبلاً، وربما قوينة أيضاً.